تاريخ الأدب الألماني

بقلم ابراهيم ابراهيم يوسف

تمهيد :

عنى أبناء العروبة فى عشرات السنين الأخيرة بدراسة الآداب الغربية دراسة توحى الاطمئنان نوعا الى ما سوف يكون عليه الجيل المقبل من تنوع الثقافة . وكانت آداب الغرب فى نظر المتأدبين منا فى بادئ الأمر هى الآداب الفرنسية وحدها ، ثم انتهى بهم الأمر ، وذلك منذ ربع قرن أو نحوه ، الى الأخذ بدراسة الآداب الانكليزية أيضاً ، وبذلك اتسع نطاق معرفة الآداب الغربية بعض الشىء . ولكن برغم هذا فاننا ما زلنا فى مستهل الطريق . ولعل الخطوة الطبيعية التى تتلو ذلك ويتبعها المتأدبون فى الشرق الأدنى والأوسط ، لا تكون إلا دراسة الآداب الألمانية دراسة جامعة ، بعد أن أخذوا بقسط غير قليل من الآداب الفرنسية والأنكليزية . . . نعم لقد ظهرت بوادر هذه الدراسة فى مصر منذ عشر سنين أو تزيد ، إلا أنها كانت دراسات موجزة لا تتفق وعظمة الآداب الألمانية ووفرة كنوزها وارتباطها بالآداب الغربية والشرقية على السواء ، ومن أجل ذلك كله حق لبعض من عكف على دراسة الحياة الأدبية فى مصر وبقية بلاد الشرق العربى أن يقول عنا بأننا أقل الشعوب المتمدنة إلماماً بالآداب الألمانية . . . والواقع أن هذه الظاهرة لا تلائم بغية المتأدبين ، إذ أول واجباتهم نحو الأدب بالذات أن يحيطوا علماً بالآداب العالمية ، وليس من ينكر بأن للألمان صرحاً فيها ما زال ، وسيبقى ، موضع فخر الأدباء فى كل صقع . . . .

لهذا كله ونزولاً على إرادة بعض من أجلهم ، رأيت أن أكتب فى هذا الباب ، عسى أن أوفق الى إثارة الرغبة عند كرام القراء فى الاطلاع على الآداب الألمانية ، بقدر توفيق الى استمالة الأدباء للاكثار من نقل غرر الآداب الألمانية

* * *

مقدمة :

لا تخلو الآداب الألمانية فى أطوارها التاريخية من صفات عامة مشتركة بينها وبين الآداب الأوربية الأخرى . نعم إن عصور ازدهار الآداب الألمانية وعصور سقوطها لا تسير مع العصور التى تماثلها فى آداب فرنسا أو انكلترا أو ايطاليا ، ولكن ليس معنى ذلك أن الآداب الألمانية فى تطورها لم تكن مرتبطة بالحركات الدينية والثقافية والاجتماعية التى غمرت القارة الأوربية . فقد كانت ألمانيا قبل دخول المسيحية اليها فى حالة أقل ما توصف به أنها حالة غامضة مبهمة . وكان الناس إذذاك يكادون ألا يعرفوا شيئاً غير الجمود والنسك ، شأنهم فى ذلك شأن بقية الناس فى البلاد الأوربية الأخرى . ثم تلا ذلك عصر آخر اضطر فيه فرسان الحروب الصليبية الى التقهقر أمام المدن الثائرة . وجاء عصر الاصلاح ممهداً لعصر النهضة . وكانت ألمانيا أسرع من جيرانها استجابة للحوادث الجسام التى كانت تنتاب أوربا من وقت الى آخر . واذا كان من المسلم به أنه لا يوجد أدب أوربى كان فى كل تطوراته مستقلاً تمام الاستقلال عن آداب جيرانه ، فانه مما لاشك فيه أن الآداب الألمانية مدينة بالشىء الكثير الى آداب الغير . لهذا كانت دراسة الآداب الألمانية هى ، الى حد بعيد ، دراسة مايطلقون عليه اليوم اسم «الأدب المقارن» ، واذاً فمن المهم معرفة مركز الآداب الألمانية بالنسبة للآداب الأوربية ، وعلاقة هذه بتلك . وستؤدى بنا طبيعة هذا البحث الى التمييز بين الوطني من آداب الألمان والأممى منها . وكذلك سنقف على مدى تشعب كل من النزعتين فى تطور الآداب الألمانية وما ينتسب منها الى الوطنية ، وماله صلة بالتاريخ السياسى أو الاجتماعى

ولكل من مؤرخى الآداب الألمانية طريقه الخاص فى استعراضه لتاريخ هذه الآداب . وكذلك كانت نظرة كل منهم فى تقسيم تاريخه إلى مراحل . وموقفنا هنا يضطرنا الى الأخذ بالسهل منها ؛ ولذلك يمكننا القول بأن تاريخ الآداب الألمانية ينقسم الى ثلاثة أقسام بينة ، لثلاثة عصور مختلفة ، لكل عصر منها لغته وطابعه . فالقسم الأول يشمل العصر القديم للألمانية الرفيعة The old high German Period الذى يبدأ حوالى سنة ٧٥٠ ميلادية ، وينتهى حوالى سنة ١٠٥٠ . والقسم الثانى يشمل العصر الوسط لآداب الألمانية الرفيعة ، Middle High German Literature الذى يبدأ من سنة ١٠٥٠ وينتهى سنة ١٣٥٠ ميلادية . ثم العصر الأول

لجديد آداب الألمانية الرفيعة Early New Hfgh German Literarute الذى يبدأ من سنة ١٣٥٠ وينتهى سنة ١٧٠٠ ميلادية ، ثم تلى تطورات الآداب الألمانية فى هذه المراحل الثلاث تطوراته الأخيرة فى كل من القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين

وسنعالج كل طور من هـذه الأطوار التى مر بها الأدب الألمانى فى باب خاص ، جاعلين بغيتنا فى ذلك إيضاح النزعات الفنية فى الآداب الألمانية وأثر كل منها فى تاريخه

* * *

العصر القديم للألمانية الرفيعة

الثقافة الألمانية الأولى

نجد فى تطور كل أدب عهداً مرتبطاً بما اتفق على تسميته فى التاريخ السياسى « بعصر ما قبل التاريخ » . وفى ذلك العصر لم تكن للشعوب ثقافة عامة ، كما لم يكن لها أدب مخطوط ، ولم يكن للألمان فى ثمانية القرون الأولى المبتدئة من يوم مولد المسيح شىء ينم عنه تاريخهم السياسى من ثقافة عامة . كذلك لم يكن لهم أدب مخطوط تمت الى الحوادث الواقعية حتى عهد كارل العظيم . والواقع أن التاريخ القديم للعشائر الجرمانية لا زال موضع جدل بين المحققين ، ولا يمكن الاجابة القطعية على سؤالك من أين جاءوا ، ومتى أتوا إلى الجهات التى استوطنوها . ولكن من الثابت أنهم ينحدرون من الأسر الجرمانية الهندية Indo germanen وموطنها الأصلى أواسط آسيا . وكانوا فى نفس الوقت الذى أخذت فيه روما توطد مركزها فى جنوب أوربا يقطنون البلاد الواقعة على شواطئ بحر الشرق Ost see الممتد فيما بين بحر البلطيق وبحر الشمال . وكان أول من جاء بأخبارهم الى العالم المتحضر فى القرن الرابع قبل المسيح ، رجل رحالة مغامر إسمه بيتس (Pytheas) فأثبت أنهم يتكلمون بلهجات ألمانية دون شك ، إذ هى تختلف عن بقية اللغات الأوروبية الهندية (die Indoeuropaeische Muttersprache, The Indo - European mother-tongue)

ومهما كان أول حدث سياسى هام يدل من كيان تلك الجماعات التى كانت تسكن المناطق الواقعة على بحر الشرق ، هو ذلك الذى أثار التفرقة بينهم وجعلهم فريقين : فريق الجرمانيين الشرقيين die Ostgermanen, West Germans وهم القوط Goten, Gothe والعشائر التى استوطنت اسكندنافيا Skandnavia وفريق الجرمانيين الغربيين die West germanen, West Germans وهؤلاء كانوا يؤلفون الجنسيات الوطنية التى عرفت فيما بعد بالفريزية die Friesen, the Frisians والسكسون الأنجليز the Anglo-Saxons والجرمانيين البحريين die Niederdeutschen the Law Germans — وهم الذين يتكلمون اليوم اللغة الهولاندية واللغة العامية الألمانية Plattdeutsch ثم الجرمانيين العلويين die Hochdeutschen, High Germans . ومضت بضعة قرون قبل أن تستقر هذه العشائر فى مواطنها الجديدة ، وكانت غزوة الجرمانيين لأسكندنافيا قد تمت قبل مولد المسيح ببضعة قرون . ثم حفزتهم غريزة الترحال فيهم الى الرجوع ثانية الى الجنوب فأسسوا دولة الدانوب البحرية

أما الجرمانيون الغربيون فكانوا أقل من زملائهم سرعة فى التطور ، إذ لم يدعهم يوليوس قيصر Julius Caesar فى القرن الأول قبل المسيح يستقرون فى مكان ، وظلوا أشبه بالقبائل الرحل حتى كانت غزوة الهونيين die Hunen, the Huns فى أواخر القرن الرابع ، التى ربكت عامة الجرمانيين

وكان النزاع بين الجرمان والدولة الرومانية قد استمر نحو نصف قرن ، مما دفع مؤرخى الرومان الى حب الوقوف على أحوالهم . فكان منهم تاكيتوس Tacibus وهو فى كتابه جرمانيا Germania كثير التدقيق والتحقيق ، وقد قال فيه إن الأبجدية لم يستعملها الجرمان فى مراسلاتهم بشكل عام إلا فى القرن الثالث . وهم ككل شعب مبتدئ ليس لهم شعر مخطوط . وفى أغانيهم القديمة ، وهى المستند الوحيد ، يحيون إلههم تيستو Tuisto الذى أنبتته الأرض كما يحيون ابنه مانوس Mannus لاعتقادهم أنهما أس الجنس الجرمانى . وللبطل أرمينوس Armitnisu ذكر فى أغانيهم . وكان له نشيد وطنى معروف باسم باردیتوس barditus ينشدونه والدروع إلى أفواههم ليكون له دوى عظيم . وكانت أناشيدهم الدينية وأغانى تمجيد أبطالهم تقترن بالرقص ويسيرون فى مواكب تشبهاً بالجرمانيين الأقدمين كما جاء فى ذلك الشعر ؛ وكان قدماء الجرمان يطلقون على هـذه الحفلات اسم لايكاس laikas وكانت هـذه هى الخطوة الكبرى نحو المأساة Drama . وأضاف تاكيتوس إلى ذلك القول بأنه لابد أن يكون للجرمانيين أدب له